الإنسيّة العربيّة في القرن الرّابع الهجريّ/العاشر الميلادي من خلال كتاب «الهوامل والشوّامل» لأبي حيّان التّوحيدي ومسكويه (*)

نص : محمد أركون ترجمة : رمضان بن رمضان / باحث، تونس

إن الفلسفة الوسيطة في أرض الإسلام. كما نعرف، أعلنت حقوق العقل واستقلاليته تقريبا مثلما فعلت مختلف المدارس الإغريقية في السابق إذا كان الكندي قد أقر أن هذه الملكة يجب أن يعتنى بها وتضاء في بحثها بمعطى الوحي، فالذين جاؤوا من بعده - وكانوا أكثر فئة حظا بفضل نصوص الإغريق التي أصبحت أكثر توفرا وأفضل ترجمة وبالتالي أكثر سهولة في هضمها - اكتفوا بعرض تعاليم الرسول باعتبارها بديهيات حقيقية بإمكان الحكيم le sage أن يصل إليها من خلال تمشّ استدلالي أكثر بطءًا وأكثر تعرجا (1).

وبناء عليه، فإذا لم يكن شرعيا الحديث عن فلسفة إسلامية بمعنى أنه ومنذ دراسات إيميل جيلسن E. Gilsen صرنا نتحدث عن فلسفة مسيحية -، ويبدو طبيعيا الحديث عن إنسية إسلامية un humanisme musulman (2) وتحديدا في نطاق الفلاسفة ومن حذا حذوهم من أصحاب العقول الحرة، الذين فوّضوا للعقل الإنساني مهمة رسم المراحل العقلية المؤدية إلى هذه الحقائق الكبرى المعروضة على عقيدتنا من قبل الوحي. مثلما هو الأمر في كل الإنسيات - كما حدّدها الغرب- الإنسان هو مركز كل البحوث الفلسفية والعلمية، نتساءل حول مصيره وأصوله ومكانته في الكون ووضعه البيولوجي والروحي وسلوكه المطابق لنزوعه الإنساني(3).

نريد من خلال هذه الدراسة، بيان انتصار هذه النزعة في القرن الرابع الهجري / العاشر ميلاديا، وذلك بتحليل أثر قليلا ما لفت إليه الانتباه إلى حد الآن بالرغم من أنه ثمرة تعاون أديبين - فيلسوفين معبرين أفضل تعبير عن عصرهما إنه كتاب «الهوامل والشوامل» لمسكويه ولأبي حيان التوحيدي.

أ) تقديـم الكتاب وبنيته :

يعود الفضل في حصولنا على نسخة من كتاب «الهوامل والشوامل»، إلى غيرة السيد أحمد أمين المجتهد الذي لا يكل وإلى مساعده السيد أحمد صقر. نعرف النشاط الكبير الذي يبذله العلامة والنابغة المصري في إحياء الكتب التراثية المعبرة عن التيار

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العقلاني والفكر الحر في أوساط المثقفين العرب. إن المعتزلة الذين شنّع عليهم في المدينة الإسلامية منذ ردة فعل المتوكل (ت. 233/ 847) تجاههم وجدوا فيه مدافعا متحمسا(4) بدون شك. ولتبيان هذا الدفاع من خلال مثال معبر، لقد اختار أن ينتزع من النسيان نماذج جذابة، كما سنرى لاحقا - من المتشيعين للعقل العاقل la raison raisonnante : أبو حيان التوحيدي، لقد وجد فيه أحد أفضل الأدباء العرب على الأصعدة الثلاثة: اللغة والأدب والفكر، ورغم أن نصيب مسكويه في كتاب «الهوامل والشوامل» أهم سواء من حيث طوله أو من حيث طابعه التذكري الفلسفي، فإن التوحيدي وفي ذهن أحمد أمين، كان هو التعلة (ذريعة) للكتابة.

إن الكتاب في حالته الراهنة(5) يشتمل على مائة وخمسة وسبعين مسألة (وهي تمثل الهوامل) مع أجوبتها (وهي تمثل الشوامل). كلتاهما ليستا، طبعا، بنفس الأهمية. إن الشكل الحواري يضمن حياة وفائدة يجعلان من قراءته مذهبة للملل، إننا نشعر وكأننا نحضر تبادلا للأفكار - نوعا من المذاكرة - وهو أمر متواتر في القرن الرابع الهجري بين المختصين الذين يجتمعون في مجالس الحاضنين للأدباء والعلماء، وتبعا لذلك، فإننا نذهب إلى الاعتقاد بأن هذا «التقديم الجديد»(6) كان من اختيار مسكويه - وذلك بالنظر إلى المقاطع التي يعترف بأنه نسبها إلى التوحيدي(7). وهو الذي تكفل بذلك وذلك لتحقيق نجاح للكتاب لدى بائعي الكتب.

إننا إذا أخذنا بعين الاعتبار الوضعية الخاصة بكلا المؤلفين، فمسكويه موظف سام يتمتع بوضع مادي ميسور وبمصداقية كبيرة، أما التوحيدي فهو غير محظوظ أو أنه غير موفق في مساعيه وفي علاقاته، يعيش الحرمان والخصاصة - لذا يمكننا أيضا أن نقول إن الأول هو الذي وضع التصميم الخاص بهذا الكتاب. في الواقع كان مسكويه يعلم أن الردّ على مسائل منبثقة من ذهن في مثل نباهة التوحيدي وثقافته إنما هو تكريس لشهرته الفلسفية ولا سيما فرض الاحترام على كل أولئك الذين يعيبون عليه حبّه الشديد للثروة والثراء وللشهوات. قبل أن يتوب عن ذلك (8). قبل التوحيدي من جانبه بهذه الصفقة على أمل أن يحصل على بعض الفضل الضروري، بواسطة مساعدة مراسله على ذلك. هذا التفسير الذي توحي به مقاطع من الكتاب يظل مقبولا بقطع النظر عن تاريخ تأليف الكتاب. إن التحديد الصحيح لهذا التاريخ - أو بالأحرى للتاريخين باعتبار أن الأمر يتعلق بمؤلفين، واللذين هما متتاليان لا محالة في الزمان - يكون، مع ذلك، مفيدا جدا لفهم جيد لبعض أسئلة التوحيدي التي حاولنا أن نقيم علاقة فيما بينها ونبحث فضلا عن ذلك عن رابط مع ما قاله التوحيدي بوضوح في مسكويه(9).

إضافة إلى ذلك، يمكننا وبشكل أدق، أن نحدد تشكل الكتاب ونتابع تطور كل من التوحيدي ومسكويه. للأسف لم نتمكن أثناء قراءاتنا للمؤلف من استخراج أي مؤشر يمكننا من إبداء رأينا بصورة حاسمة. في مقدمة الكتاب، يكتفي أحمد أمين في (ص.ي) بالإشارة إلى أن «الهوامل» هي المؤلف الأول - أي القسم الأول من الكتاب - وهي للتوحيدي، يوضح م.س. ستارن M.S. Stern أنه «قد يكون التوحيدي وجّه أسئلة إلى مسكويه من الري» ولكن التوحيدي أقام بالري (10) في مناسبتين على الأقل: المرة الأولى ليتوسل الحظوة لدى ابن العميد وهذه الزيارة وقعت ما بين 353-360هـ(11). المرة الثانية حصلت ما بين 363-370هـ في محاولة، لا جدوى منها، لكسب صداقة ابن عباد. إذا أخذنا بعين الاعتبار وكما سنبينه لاحقا أن مظاهر شخصية التوحيدي قد تتجلى بقوة في «الهوامل» فإننا نميل إلى الاحتفاظ بالتاريخ المتأخر لتصنيف الكتاب أي ما بين 367-370هـ.

بعد قطيعته النهائية مع الصاحب بن عباد، كان من الطبيعي أن يتقارب مع مسكويه الذي ظل بعيدا عن الوزير المتكبر المؤيّد وعن فخر الدولة(12). ووفيّا لذكرى وليّ نعمته ابن العميد.

من ناحية أخرى، فمسكويه نفسه، حتى إن صدّقنا ما قاله عنه التوحيدي في الامتاع(13)، فإنه لم يكن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إلى حدود سنة 366هـ على الأقل قد تحول بعد بصدق إلى الفلسفة(14). إن ابن العميد وكذلك ابنه أبو الفتح كانا من الأدباء الظرفاء أكثر من كونهما فيلسوفين زاهدين. فعضد الدولة هو الذي شجع مسكويه على التوجه نحو الفلسفة. بما أنه هو نفسه كان فيلسوفا يسبغ نعمه وأفضاله على أهل الخصوص والعلماء (الحكماء)(15). في بيئة مهتمة كأشد ما يكون الاهتمام بالعلم والحكمة، أحس مسكويه أنه صار لزاما عليه أن يستعجل في فرض نفسه كمعلم في الفلسفة comme maître قبل أن يعتبره أصدقاؤه مجرد مشتغل بالكيمياء (خيماوي) (16). إننا إذ نؤكدّ أن مسكويه قد كتب أجوبته (الشوامل) ورتب المصنف في كليته ما بين سنة 370 و372 هـ، نقترب أكثر من الحقيقة الظاهرة والتي تقدمها لنا النصوص المتوفرة حاليا(17).

إن نظام تتالي المسائل ومن ثم الأجوبة، لا يستند على أي قصد في تأليف نسق وبلورته فمثلا المسألة حول الغناء المصحوب بآلة موسيقية وهي المسألة رقم 61 ص 162 يأتي بعد سؤال حول نزوع الروح إلى الطهر (المسألة رقم 60 ص 158-159)، سؤال آخر حول الأسباب التي تحثنا على حفظ الأسرار (المسألة رقم 2، ص 15) يأتي بعد اهتمامات معجمية محضة. (المسألة رقم1، ص 5). . . فالسؤال نفسه يتناول غالبا أكثر من قضية. كذا شأن المسألة (رقم 4 ص 24-26) التي تتناول في الآن نفسه الأسباب التي تجعل الزهد مرغبا فيه لدى الناس كافة، الفرق بين السبب والعلة، ثم نسبيّة الزمان والمكان (18).

مذ ذاك، هناك صعوبة جمة في الإحاطة بمحتوى الكتاب في دراستنا هذه والتي تهدف إلى جمع معطيات مبعثرة حول مباحث عامة بغرض شرحها. فليس الذي يعنينا الكمّ الهائل من المسائل المثيرة في كتاب «الهوامل» على أهميتها، ولكن الذهنية والمنظور اللذان طرحت ضمنهما وأجيب عنها. وكذلك من ناحية الدروس المستخلصة من خلال كاتبين مهمين ومن خلال الآفاق الفكرية لعصر كامل.

إن الإنسيّة تتكشف ليس في الكيفية التي يدافع بها عنها بل أكثر من ذلك في الكيفية التي تعاش(19) أكثر من كونها إشكالية محضة، لذلك سنسائل، بشكل منفصل «الهوامل» ثم «الشوامل» وذلك بالنسبة إلى النماذج النفسية التي تظهر بمقدار ماتظهر الأنساق التي تم تصميمها إن لم يكن أكثر.

ب) تحليل محتوى كتاب «الهوامل» :

– أبو حيان التوحيدي أو الإنسية الساخطة:

إن كل من يمتلك معرفة قليلة بالنسق الفكري الاعتزالي، سيسعى إلى أن لا يرى في «الهوامل» إلا مجموعة عينات معبرة عن الإشكاليات التي يتم عادة نقاشها في أوساط المثقفين منذ ظهور المتشيعين للعقل في القرن 2هـ/ 8م. بدا أسلوب التوحيدي اللاذع، المتشنج تارة والظريف طورا، يذكرنا بطريقة جذابة بالجاحظ ولكنه يظل دقيقا. عندما نستنطق النصوص بذهن أقل تحاملا، ندرك سريعا أن التقليل منها وحذف قيمة ثمينة لشهادة على تجربة فريدة وغنية يظل أفضل من ردّها إلى مجرد مساءلة معتزلية موجهة إلى تحدي المعرفة الفلسفية.

إن الاعتزال وربما التصوف أيضا، مكّنا التوحيدي، ليس فقط، من الجهر بما يعتقده ولكن. وقبل كل شيء، من منهجية وإطار مناسبين للتعبير عن إحساس مأساوي بالحياة، إن الفكر الجامح يوصل إلى مستوى يفتح الضمير على اللامعقول. بما يعني الإحساس بقطيعة مدوية يتعذر ترميمها بين العقل والواقع وبين العلم والغيب. وبما أننا في القرن العاشر الميلادي، أي في العصر حيث بؤس الإنسان في مواجهة نفسه وفي مواجهة الطبيعة، يتسامى بسهولة ليتحول إلى احتجاج متصلب على الإله وحيث المثقف ينتقل بيسر من التشريح العقلاني للواقع إلى التغني بالعشق الإلهي.

بعيدا عن هذا التأويل الخاص ليس فقط «بالهوامل» ولكن أيضا بكل مصنفات التوحيدي(20) إذ كيف نفسر تقديمه لنفسه بصفة دورية كثائر ونبيل ساخط وكنزيه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ونمام وكمثالي صاخب ومادي يحسد الآخرين على نجاحاتهم وعلى رفاهيتهم، وكعقلاني سادر ومؤمن ورع، وكطموح فخور وغريب في دنيا الناس وكعلامة شغوف بالمعرفة واثق في فضيلة العلم... وعدمي يذهب إلى حد حرق مؤلفاته (21).

إن أي تجربة وجودية صادقة هي، ولا شك، تقوم دوما على خيبات ونجاحات وعلى المراوحة بين القوة والضعف، باختصار، في هذا الخليط العكر الناتج عن الانفعال الحاد ننخرط في وضعيات مختلفة. لذلك وفي حالة التوحيدي. من العبث البحث عن مفتاح لشخصيته: هذا يعود إلى رغبتنا في اختزال التناقضات الملازمة للحياة إلى مجرد معادلة بسيطة. لقد شارك التوحيدي في أرقى المناظرات الفكرية وتحمل في الآن نفسه وضعيته المهينة تلك التي يكافئ المجتمع بها في أغلب الأحيان، المفكرين الجريئين، ويبدو أنه نجح في غوص ثري في أعماق هذا التعارض والتي على أساسها، كما سنرى مع مسكويه، بنى الفلاسفة انتروبولوجيتهم (22). تبعا لذلك يقدم التوحيدي نفسه كأحد أفضل الأمثلة على المثقفين المجدّين في القرن 4هـ/ 10م. فهو يختلف في الآن نفسه، عن متذوقي الجمال من أمثال ابن العميد، وعن المتأملين التجريديين مثل معظم الفلاسفة واختلافه أكثر عن المتكلّمة والفقهاء. لقد كان لمصادفة التواصل واللقاءات مع الأمراء والوزراء والتعاقد معهم الكلمة العليا في توجيه مجرى حياته كلها (23). وأعطت حياته شيئا من الاستقرار، لأنها ساهمت في إبراز البعض من سمات شخصيته مثل الثورة والصرامة النقدية وانتظاره المتشنج لفرصة للثأر: كلّ ذلك بذريعة وعيه بقيمته وبأهليته اللتين طالب بالاعتراف بهما دون خجل زائف (24).

لقد كان من اللازم الإلحاح على هذه المعطيات حتى لا ندخل في ذاته الواحدة وفي منطقها الداخلي انقسامات مصطنعة لكونها ظاهرية مثل أن ندرس انتماءه للاعتزال ومعتقده وفنه الأدبي... فبدلا من تفكيك الحقيقة الحية والشاملة، بهذه الطريقة، نرى أنه بإمكاننا إثارتها: بشكل أكثر وفاء وذلك باقتناص توجهاتها العامة والأشد ذيوعا. «فالهوامل» ستمكننا من تحديد ثلاثة توجهات:

1- العقلانية السادرة ولكنها الأكثر خصبا.
- أ- من خلال معنيي النسبية والكونية
- ب- من خلال المعنى الحي والنافذ للتجربة المعاشة
2- الجرأة الفكرية
3- التوجهات الثقافية

عقلانيـــة التوحيـدي:

ما العقل؟ وما علّة الشيء...؟ وما الداعي لإثارته...؟ ما السر الذي يخفيه...؟ ما الذي يريد القدامى قوله بـ...؟ ما تاثير وما هي النتائج التي تجرّها...؟ كيف يصير الحل إلى...؟ ما وجه المعنى في...؟

تلك هي الاستفهامات الملحة التي تعود عند طرح كل مسالة: هذه المجموعة من العيينات وحدها تكفي لتكشف عن موقف علمي وجريء لكاتبنا وعن عطش للفهم وذلك بالاستعانة فقط بأنوار العقل الإنساني. هذا العقل لا يترك شيئا يقع خارج نفوذه. فكل النقاط الحساسة التي تشغل على السواء الذهنية الشعبية أو الذهنية الراقية، يتم إثارتها (25). هذا العقل حيثما حل يثير الشك في البنية المنطقية وفي الحتمية سواء كانت تبسيطية أو صارمة. لأنه يبحث في كل مكان على ربط السبب بالنتيجة. لا يستعمل البتة المعطيات الدينية وإن استعملها فليخضعها هي بدورها إلى «الشك المنهجي».

لكن، لا يكفي أن نعلن انحيازنا إلى العقلانية، فهذه ورغم أنها دعامة لكل موقف فلسفي، إلاّ أنها تقودنا إلى أنظمة شديدة الاختلاف بحسب الكيفية والرؤية اللتين تمارس ضمنهما هذه العقلانية.

إن التوحيدي، لا يمكنه طبعا الانفلات من القلق الفلسفي المسيطر والذي كان تقريبا وحصريا معرفة أنطولوجية بمعنى أنها فكر جوهراني يبحث عن إدراك لأشياء في ذاتها.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ليسأل التوحيدي، عن المفاهيم المتداولة بكثرة في الفلسفة (مثلا المسألة رقم 40، صص 94-95) أو عن سبب تصافي شخصين لا تشابه بينهما في الصورة ولا تشاكل عندهما في الخلقة (المسألة رقم 49، صص 129-130) أو : عن ملتمس النفس، (26) إذ يقول «ما ملتمس النفس في هذا العالم ؟ وهل لها ملتمس وبنية ... ولولا أن يتسع النطاق لسألت ما نسبتها إلى الإنسان؟ وهل لها به قوام أو له بها قوام ؟ وإن كان هذا فعلى أي وجه هو؟ وأوسع من هذا الفضاء حديث الإنسان : فإن الإنسان قد أشكل عليه الإنسان». (المسألة رقم 68 صص 179-180) أو: «لم صار الإنسان إذا صام أو صلّى زائدا عن الفرض المشترك فيه، حقر غيره واشتطّ عليه وارتفع على مجلسه ووجد الخنزوانة (الكبر) في نفسه وطارت النعرة (النخوة) في أنفه حتى كأنه صاحب الوحي أو الواثق بالمغفرة والمنفرد بالجنّة (المسألة رقم 136، صص 298-299) هذه التساؤلات تهدف دوما. إلى الفهم النهائي للشيء في ذاته والذي بفضله ينفذ العزم والإصرار العقل من فوضى التعدد ليقيمه في لذة الاستغراق والتأمل في وحدة الذات الإلهية (27).

ولكن التوحيدي ليس كمسكويه. حكيم قد تحرر بالمقدار الكافي من ضغوطات الحياة ليتفرغ إلى مطاردة بدون جدوى لمثل أعلى تأملي. إنه- التوحيدي، بالأحرى كاتب فيلسوف، يحمل على أمثاله ،وهو يتصارع مع الحياة نظرة نقدية، إنه في الآن نفسه، تستبد به صورة الإنسان الكامل (28). التي ظلت حية في تعاليم أستاذه أبي سليمان المنطقي (29). وكذلك بيئة النفاق والدسائس وصراع المصالح، باختصار كل ما هو لا أخلاقي. حيث وجد نفسه مجبرا على أن يجد لنفسه مكانا وسطها. إنه يرتفع بالمواجهة بين هذين الأمرين الأخلاقيين ليجعل منها طريقة للتفكير في الوضعية الإنسانية.

نلتحق هكذا برؤية شبيهة برؤية مونتاني Montaigne الذي يرى في مختلف التجارب الإنسانية. العدد نفسه من «محاولات» بائسة تقريبا، الهدف منها هو تجسد الحكمة في الفعل.

مثلما فعل مونتاني. ولكن بنبرة أشد حدّة ومحملة أكثر بالغيظ، يسجل التوحيد في هذه «المحاولات» Essais الراهنة والماضية العجز والخيبات، ليقابلها، ضمن جدلية صارمة، بادعاءات الإنسان العاقل l'homo-sapiens.

إنّ الدروس المستخلصة من هذه المواجهة القاسية، غنية ودائما راهنة كما ستبينه بعض الأمثلة التالية:

فلا الغنى ولا المعرفة ولا الدين نفسه تكفي لجعل الإنسان لا محالة طيبا وطاهرا كما يريده العقل.

إن الملاحظة العادية، تظهر أن الناس «في جميع اللغات والنحل وسائر العادات والملل يتواصلون بالزهد في الدنيا والتقلل منها والرضا بما زجا به الوقت وتيسر الحال، هذا مع شدة الحرص والطلب وإفراط الشره والكلب...» (ص 24). إن السلوك الأفضل هو ذاك الذي يتبدل بحسب النزعات المتناقضة للمعيار العقلاني، هكذا إذن - «فلمَ تحاثّ الناس على كتمان الأسرار وتبالغوا في أخذ العهد به وحرجوا من الإفشاء» (المسألة رقم 2، ص 15) ثم «ما الحسد الذي يعتري الفاضل العاقل من نظيره في الفضل، مع علمه بشناعة الحسد وبقبح اسمه واجتماع الأولين والآخرين على ذمّه؟».

(المسألة رقم 23، ص 70) ثم: «لمَ صار بعض الناس يولع بالتبذير مع العلم بسوء عاقبته وآخر يولع بالتقتيرمع علمه بقبح الدالة فيه» (المسالة رقم 39 ص 115) و«لم اشتد عشق الإنسان لهذا العالم حتى لصق به وآثره وكدح فيه مع ما يرى من صروفه وحوادثه ونكباته وغيره وزواله بأهله» (المسألة رقم 102، ص 248) ثم «لم صار الحظر أثقل على الإنسان؟ وكذا الأمر إذا ورد أخذ بالمخنق وسد الكظم وقد علمت أن نظام العالم يقتضي الأمر والنهي ولا يتمان إلا بآمر وناه ومأمور ومنهي وهذه أركان ودعائم» (المسألة رقم 143، ص 310).

إن فكرة كونية بعض العيوب والإخلالات التي تفقد الطبيعة الإنسانية، تبعا لذلك أهميتها وتعجز تماما على إزالة علامات ضعفها تنتهي حينئذ بفرض نفسها على

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

قارئ «الهوامل» يقابل التوحيدي «أخلاقية الصور الرمزية المثالية» (30). في الأوساط الصوفية والفلسفية بالمعرفة الحقيقية للأخلاق، حيث ما تزال هذه المعرفة غير واعية بنفسها ومأخوذة بجملة الحيثيات المتعددة ولكنها تمثل استحقاقا لا مثيل له في أن تكون مبتكرة وطريفة. في جميع الأحوال، ينبغي التأكيد على وجهة النظر الايجابية التي يتبناها التوحيدي وذلك بإرجاع الأهمية الاجتماعية والفعالة للفضيلة la vertu في حين تبدو الرذيلة le vice أو العيوب... وفي علاقة تبادلية مع الفضيلة كأشياء عادية. في كل مرة تقتضي فيها المسألة إجابة في اتجاه ما يسارع مسكويه إلى ترك أرضية المعطيات الواقعية، لأنها بنظره تحيل على النفس الحيوانية ليوجه النقاش نحو مقتضيات النفس العاقلة إن سوء الفهم الذي تطرحه المسألة رقم 128، ص 287-288 «لم صار اليقين إذا حدث وطرأ لا يثبت ولا يستقر والشك إذا عرض أرسى وربض ؟ يدلك على هذا أن الموقن بالشيء متى شككته نزا فؤاده وقلق به !و الشاك متى وقفت به وأرشدته وأهديت الحكمة إليه لا يزداد إلا جموحا ولا ترى منه إلا عتوا ونفورا» يستمر ذلك في الكتاب كله.

«لماذا يطلب التوحيدي اليقين، وعندما يعثر عليه يجده غير مستقر وغير ثابت في حين أن الشك إذا عرض ربض... يجيب مسكويه بحزم أن ما من يقين إلا في المنطق وفي الرياضيات وهو بذلك يقصي الشحنة الانفعالية التي ينطوي عليها مفهوما اليقين والشك الموجودان في مسالة التوحيدي.

مثال آخر معبر عن هذا التنافر في وجهات النظر توفره لنا المسألة رقم 55 ص 147 : «ما العلة في حب العاجلة ؟ ألا ترى الله -تعالى- يقول : «كلا بل تحبون العاجلة» والشاعر يقول : «والنفس مولعة بحب العاجل». من أجل هذا المعنى ثارت الفتن واستحالت الأحوال وحارت العقول واحتيج إلى الأنبياء والسياسة والمقامع والمواعظ...» هذا المثال يسمح لنا بإظهار الطابع النقدي والجريء لموقف التوحيدي نسجل، إلى حد الآن أن صاحب «الهوامل» يستشهد تلقائيا بالشعراء الذين لا يأخذهم مسكويه مأخذ الجد يقول : «ولو حملنا معاني الشعر على تصحيح الفلسفة وتنقيح المنطق لقل سليمه وانتهك حريمه وكنا مع ذلك ظالمين له بأكثر مما ظلم الشاعر النفوس التي زعم أن الظلم في خلتها» (ص 85). عندما نعلم أن الشعر هو قبل كل شيء التعبير الحميمي والمباشر على أصداء نفس الشاعر وعلى الأحداث صغيرها وكبيرها، سعيدها وحزينها، نقيس عندئذ المسافة التي تفصل الكاتبين عن بعضهما البعض في كيفية قراءة كل منهما للواقع.

إن التوحيدي لا يمكنه أن يمنع نفسه من أن يربط تفكيره مع ما يجده في تجربته الخاصة قابلا للتعميم. فعندما يتساءل : «لم طلبت الدنيا بالعلم والعلم ينهي عن ذلك ؟ ولم لم يطلب العلم بالدّنيا والعلم يأمر بذلك». (المسألة رقم 5 ص 33). إنه من البديهي أن يطرح التوحيدي من خلال وضعيته الخاصة السؤال الحارق عن مكانة المثقف في المجتمع (31). إن السؤال المطول والمفصل بدرجة عالية من الدقة حول الصداقة والذي يبدأ بهذا الاستفهام : «ما السبب في تصافي شخصين لا تشابه بينهما في الصورة ولا تشاكل عندهما في الخلقة...» (المسألة رقم 49، ص 129-130) (32) هي أيضا معبرة جدا عن التداخل بين الذاتي والموضوعي وبين النسبي والعام في مقاربة التوحيدي للمسائل.

إن التعريف الشهير للصديق حسب أرسطو : «الصديق الآخر هو أنت» أتاح الفرصة لنقاشات متواترة بين المختصين وللتوحيدي أن يدلي بدلوه من خلال الصفحات النابضة بالحياة في كتابيه الإمتاع والمقابسات (33).

لكن التوحيدي يبدو أنه حاول -دون جدوى - أن يصطفي لنفسه صديقا، وفشله في ذلك ترك أثرا عميقا في نفسه ورمى به في غربة أخلاقية وفكرية ألهمته تلك الصفحات الرائعة في كتاب «الإشارات الإلهية» (34).

إن سبر أغوار المعيش ترك التوحيدي مشحوذا باستمرار، في تأمله القاسي حول مصيره الشخصي وفي رصده المتوثب لكل معاصريه بمختلف انتماءاتهم.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إنه لأمر مثير أن نرى مسكويه يمتنع بازدراء عن الإجابة على عدد من المسائل المتصلة بالمعتقدات الشعبية. مثل المسالة رقم 157، ص 339 : «ذكرت -أيّدك الله- مسائل لا تستحق الجواب من آراء العامة وجهالات وقعت لهم مثل قولهم : إذا دخل الذباب في ثياب أحدهم يمرض وقولهم ديّة النملة تمرة، وإذا طنّت أذن أحدهم قالوا كيت وكيت وهذه المسائل وأشباهها إنما ينبغي أن يهزأ بها ويتملح بإيرادها على طريق النادرة، فأما أن يطلب لها أجوبة فما أظن عاقلا يعترف بها. فكيف نجيب عنها؟ والله يغفر لك ويصلحك». بعد طرح هذه المسألة لم يكلف مسكويه نفسه عناء الإجابة -وهذا لسوء حظنا- عناء أن يسردها علينا كلّها.

إن الإصرار والعناية الفائقة اللتين يفحص بهما التوحيدي كل ما يعرض له جعلاه يتوقف عند سلوكات غير متوقعة أحيانا فهو يطلب : «لم صاحب الهم ومن غلب عليه الفكر في ملم يولع بمس لحيته وربما نكت الأرض بإصبعه وعبث بالحصى». (المسألة رقم 121، ص 275) ويسأل : «لم البنيان الكريم والقصر المشيد إذا لم يسكنه الناس تداعى عن قرب وما هكذا هو إذا سكن واختلف إليه (..) فآعلم أن هذا لذاك لأنك تعلم أنهم يؤثرون في المسكن بالمشي والاستناد وأخذ القلاعة (قشر الأرض والطين) «(المسألة رقم 110، ص 260). وأيضا (المسألة رقم 146، ص 314) : «ما علة كراهية النفس الحديث المعاد».

إنه يحتفظ بكل التفاصيل المهمة على طريقة الجاحظ، ومن ضمن المسائل المتعددة تستحق المسألة رقم 38، ص 114 أن ننقلها كاملة :

«ما سبب محبة الناس لمن قل رزؤه حتى إنهم ليهيئون الطعام الشهي له بالغرم الثقيل ويحملون إليه في الجون على الرؤوس ويضعونه بين يديه وكلما ازداد ذلك الزاهد تمنعا ازداد هؤلاء لجاجة، فإن مات اتخذوا قبره مصلّى : وقالوا : كان كثير الصوم، قليل الرزء وإذا عرض لهم من يأكل الكثير ويتذرع في اللقم مقتوه ونبذوه وكرهوا قربه واستسرفوا أدبه ؟ ولعلة ما هجر الناس زيارة مقابر الملوك والخلفاء ولهجوا بزيارة قبور أصحاب البتّ والخلقان وأهل الضعف والمسكنة» (35).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش والإحالات

*) هذه الدراسة صدرت ضمن كتاب محمد أركون
Essais sur la pensée islamique (Paris 1977) «L'humanisme arabe au IXe/ Xe siècle .d'apres le kitab al-hawamil wal-sawamil pp87.
وقد ترجمنا جزءا منها متصلا بكتاب «الهوامل» للتوحيدي - ص 87-100

1) L. Gardet, le problème de la «philosophie musulmane» avec les références qui y sont données aux travaux de R. Walzer, in mélanges E.Gilsen, vrin 1959, PP 262.284

2) Le probléme est discuté dans L. Gardet, la cité musulmane, pp. 272 et av. le point de vue positif est défencdu par Abd al Rahman Badawi, dans la pensée arabe, SI,VI,pp. 67-101.

3) إن الدور الذي لعبه المعتزلة في فسح الآفاق الإنسانية لكل المشاكل الهامة هو بالتأكيد دور خطير. ولكن، ألم يكن الاعتزال نفسه تعبيرا عن أزمة عامة للضمير الإسلامي المنهوك في حيويته ولكنه الساذج في توثبه البدائي من قبل التمثلات القديمة للعالم التي كان مجبرا على التعاطي معها تدريجيا؟.. إن المعنى الخصيب للأنسية الإسلامية ينبغي البحث عنه في اقتحام القيم العقلانية والتقاليد الدنيوية الأجنبية للوعي الانفعالي الذي

تغلب عليه الرؤية الأخروية. إن حركة التثاقف هذه التي أنتجت أرواحا معذبة مثل روح التوحيدي، وهي التي استعيدت مع «النهضة» في القرن التاسع عشر وتجلت، تحت أعيننا من خلال الاضطرابات التراجيدية.

4) يعد محمد عبده والذي كانت مواقفه العقلانية تظهر أكثر كنتيجة التقاء ذهني بسبب حركة مثاقفة، أكثر منها إرادة ثابتة «في العودة إلى الأصول» بالنسبة إلى أحمد أمين الذي درس علميا المعتزلة، المساران اشتغلا بالتساوي.

5) الإجابة على السؤال الأخير غير مكتملة، فالمخطوط الوحيد الذي استند إليه في النشر قد سقطت منه بضع ورقات (5 أسئلة وأجوبة - كما يظن الناشرون. أنظر «الهوامل والشوامل» ص 368 الهامش 1.

6) إنه نفس التقديم الذي اعتمده مسكويه في كتابه «رسالة في العقل والنفس» والذي أعددناها للنشر وستصدر قريبا في: le bulletin de l'inst fr de Damas هل يمكننا أن نفكر في محاولة لتقليد حوارات أفلاطون؟

7) أنظر على سبيل المثال رقم 68 ص 180 ورقم 69، ص 182، والمسألتين 161 و162 في الكتاب جراء خطأ في الترقيم، وضعه مسكويه نفسه ليعطي لنفسه فرصة حتى يتعرف التوحيدي على إجابته.

8) لقد تحدث هو نفسه عن هذه التوبة في كتابه «تهذيب الأخلاق»، القاهرة 1329هـ، ص61: «ليعلم قارئ هذا الكتاب أني، شخصيا، استطعت تدريجيا أن أفطم نفسي بعد أن عشت الحياة وتركتها تتعود على الاستمتاع بها. هكذا أسلمت نفسي إلى معركة فظيعة».

9) يتهم التوحيدي، مسكويه، بشدة لأنه يتظاهر بمشاعر أخلاقية دون أن يلتزم بها في سلوكه ولا سيما اتهامه له بالبخل. أنظر كتاب الإمتاع والمؤانسة ج1 ص 35-36 وكتاب «المقابسات» ص90. هذه الفقرات ينبغي التعاطي معها بحذر مثل كل الأحكام التي يصدرها التوحيدي على معاصريه.

10) If.E.I.2e ed s.v.ABU hayyan. article de S.M sterm

11) إنها الفترة التي ظل فيها مسكويه الصديق الحميم لابن العميد (أنظر: تجارب الأمم، ج2، ص276) في هذه الفترة. يتعرف المؤلفان على بعضهما البعض دون أن يصبحا صديقين.

12) إن العلاقة الحميمية التي جمعت مسكويه بابن عباد لها أسبابها الشخصية والسياسية والثقافية. وسنقدم تحليلا مفصلا حول ذلك في بحث ينشر لاحقا

13) كان طوال إقامته عند ابن العميد، منشغلا بالكيمياء... ومسخرا جزءًا من وقته لحاجياته ولشهواته. الإمتاع، ج1، ص35.

14) هذا يعني أنه إلى حدود وفاة أبي الفتح، أبقى ابن العميد مسكويه في خدمته، وهذا ما توحي به فقرة في كتاب تجارب الأمم (ج II، ص 338) كنت في جملة السائرين من الري في صحبة أبي الفتح...) إلا أن مسكوية يرسم للوزير الشاب صورة حيث يعيب عليه. نزقه الصبوي وحبه للبذخ والأبهة والقوة... ولكن ذلك تم بعد فوات الأوان بما أن كتاب «التجارب» قد كتب بعد 381 هـ (موت أبو الحسن العامري ذكر في الجزء الثاني ص 277) انظر التجارب ج 2 صص 301-303

15) تجارب الأمم، ج II، ص 407

16) في إجابته على السؤال رقم 151 حول الكيمياء تعهد مسكويه بأن يخصص مقالة خاصة، لأنه يعتبر الموضوع هامّا جدا (ص327). هذه المقالة إن كانت قد كتبت فعلا، فهي للأسف قد ضاعت. كان بإمكانها أن تتيح لنا تحديد أهمية الخيماوي الخبير ودوره في النشاط العقلي في القرن 4 هجري.

17) يحيل مسكويه في كثير من الأحيان قارئه إلى مؤلفاته هو. ففي كتاب الشوامل يحيله إلى الكتاب «الفوز الأصغر»، والحال أن هذا الكتاب قد صنف استجابة لطلب عضد الدولة، أي بعد سنة 367هـ، عندما استقر الأمير السيد في بغداد، تأسّى بابن عباد الذي كان يسمّى عضد الدولة. دوما، بالأمير السيد أو الملك السيد (انظر رسائل، نشر، شوقي ضيف، القاهرة 1368) مسكويه بدأ كتابه الفوز بهذه العبارات: «ورد على أمر الأمير الأجل المظفر السيد المؤيد من السماء...»

18) تنبعث من هذا القصف المتواتر من الأسئلة، إرادة قتالية يمكن النظر إليها على أنها تحد ساخر للمعرفة الفلسفية أو هي مجرد تعبير عن فضول قوي ؟ لا ننسى أن التوحيدي كان دائما يبحث من خلال كتاباته عن ثأر من معاصريه الأكثر منه حظا.

19) في هذا الصدد، إن التوحيدي ومسكويه متكاملان بشكل رائع، بما أن القسم الأول الخاص بالتوحيدي يحتوي على احتجاج شديد ضد النزعة الإنسية الجوفاء للمثقفين والأغنياء، في حين أن القسم الثاني الخاص بمسكويه الثائب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هي جهد متواصل لمصالحة سلوكه مع مبادئه طبقا للعهد. . . الذي قطعه على نفسه في الوصية (ذكرت في المقابسات ص 323 -326) هذه الوصية في حد ذاتها شهادة تحرر تعبر على درجة حرية الضمير في القرن الرابع الهجري.

20) بالنسبة إلى الشهادات القديمة حول انتماء التوحيدي للاعتزال والتصوف يمكن الرجوع إلى الكيلاني، أبو حيان التوحيدي، ص 52-56 في كتاب «الهوامل» يمكن أن نعثر على مرجعين معبرين هما «أصحاب التوحيد» (ص 278) و«المعتزلة» (ص 135) .للتوحيدي حكم عليهم ينزع إلى أن يكون موقفا شخصيا «إنهم يوجهون مناقشاتهم في كل الإتجاه ويقدمون تأكيداتهم ببلاغة ويتعصبون لآرائهم ويتشيعون لمواقفهم (ص 135).

21) للنظر والاطلاع على كل مصنفات التوحيدي يمكن الرجوع إلى الكيلاني، المرجع نفسه، القاهرة، 1957، صص 36-50.

22) في قراءة ولو كانت سريعة للامتاع وللمقابسات أو لكتاب الصداقة تسمح لنا باستخراج هذه التوجهات. أنظر بالخصوص رسالة القاضي أبو سهل علي بن محمد في المقابسات. صص 109-114. صفحات رائعة من أدب السيرة الذاتية، نفس المرجع ص 308 .النقاش حول الصداقة، نفس المرجع ص 359-378 وداخل كتاب الصداقة المذكور آنفا.

23) للإطلاع أكثر على هذه الخيبات، أنظر الكيلاني، مرجع سابق صفحة 18 وما بعدها.

24) أنظر خاصة الصفحات شديدة التعبير عن هذه الطموحات والأماني: في كتاب، الامتاع، ج.3، صص 64-66.

25) ليس أكثر من النخبة في عصره، التوحيدي لم تكن لديه النية في تعليم العامة. أنظر الامتاع، ج1، ص 225 ولكن العديد من تساؤلاته ترتبط بهذه الرؤية الأخروية والتي تتحد فيها النخبة والعامة إلى حد ما.

26) من المهم الإشارة إلى أن مسكويه يعترض - سنرى ضمن أي ذهنية تم ذلك على مصطلح «ملتمس»لأنه «بسببه أسرع أبو بكر الرازي وغيره من فلاسفة عصره نحو نظام فكري بعيد جدا عن الحقيقة» (ص 180). التوحيدي استعمله بدون شك لحين ليشير الى أن الروح لها منزع سماوي، وأنها لا يمكنها أن تجرى في هذا العالم خلف هدف مادي (كالغنى والقوة، . . .الخ).

27) إن البحث الصوفي عن الإله والبحث الفلسفي عن الحق، لهما دوافع مشتركة، من ذلك تواتر التوافقات العقلية ومن بعدها التوافقات اللفظية.

28) إنه أحد المواضيع الأساسية للإسمية العربية. أنظر:

Louis Massignon, l'Homme parfait en Islam et son originalité eschatologique, in Eranos, jahrbuch, 1947, pp.287-314.

وأيضا عبد الرحمان بدوي. م. سبق ذكره

29) حول هذا «الشيخ الفاضل» كما يسميه التوحيدي. أنظر:

E.I 2é ed. S.V (article de S.M sterm) et ce que nous en disons plus bas.

30) تعبير يستعمله G Gurvitch , traité de sociologie , II, passim, Paris 1960

31) يجب أن نلاحظ أن هذه المطالبة الاجتماعية تحمل الجديد فالاستقصاء المعمق حول ذهنية المثقفين المتخلى عنهم والمهمشين مثل التوحيدي كشفت ربما عن تغيير في الذهنية بالنسبة إلى العلماء في الزمن الأسطوري (القرن الأول الهجري) باتجاه «علمنة» وانخراط معلن تقريبا في أخلاق الربح والمنفعة .

32) يعود إلى هذا في السؤال رقم 76 ص ص 190-191

33) إن مبحث الأخلاق هذا قد قدم ليس فقط كموضوع للتأمل اقتداء بالإغريق ولكن كإحدى المجالات حيث تتم كليا القطيعة بين الصورة الرمزية المثالية والحقيقة المعاشة -أنظر كتاب الصداقة -سبق ذكره

34) نشر عبد الرحمان بدوي، القاهرة 1950، وهو وثيقة نفسية وأدبية ذات أهمية قصوى .

35) نلاحظ، في الوقت نفسه الثراء الأدبي والنفسي وأيضا الاجتماعي للنص : وغيره كثير مما يوفر مادة لمختارات أدبية رائعة une belle anthologie .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com